# الخلـــود

L' IMMORTALITÉ

للشاعر الفرنسي لكبير لامارتين

## ترجمة السيد أحمد عيتاني

أحب لامارتين « ألفير » حباً ملك عليه حواسه ومشاعره وكاد يقرب من العبادة إلا أن القدر أبى أن يمتعه بهذا الحب طويلا ، فبينما هو يقضي إلى جانب محبوبته ألذ ساعات العمر وأعذب أوقات الحياة ، إذا بالنبأ يفاجئه بأنها مريضة ومشرفة على الموت ، فينال هـذا النبأ منه وينظم آلامه وشجونه في تلك القصيدة التي ينظر فيها إلى الموت نظرة المنقذ الذي ينقل الانسان من آلام الحياة الفانية إلى سعادة الحياة الأبدية

لقد آلت شمس أيامنا منذ فجرها إلى الإصفرار !
فهي لا تكاد ترسل نحو جباهنا الكليلة
سوى بضعة أشعة مرتجفة تقاوم الظلمة !
ولكن الظلمة تنمو ، والضياء يتلاشى ، ويتمحى كل شيء ويزول !

* * *

ألا فليرتعد سواي أمام هذا المشهد ! ولتخنه قواه !
وليبتعد مرتجفاً عن شفا الهوة !
وليعجز عن الاستماع بعيداً دون أن يجزع
إلى أنشودة الموت البائسة التي يتهيأ لالتقاطها ، أو إلى الزفرات
المختنقة تصعدها حبيبة أو شقيق
فتعلق حول أطراف سريرها الكئيب !
أو إلى الناقوس المدوي ،
تنشر دقاته المضطربة بين الملأ أن فلاناً قد قضى !

* * *

سلاماً أيها الموت ! أيها المنقذ السماوي !
إنك لا تظهر لي في هذا الشكل الرهيب
الذي ألبسك إياه الوهم والرعب زمناً طويلا !
إن ذراعك لا تحمل ذلك الخنجر الهدام !
إن جبينك ليس مرعباً ! وإن عينك ليست غادرة !
إن رباً لطيفاً يسوقك لتخفيف الآلام !
إنك لا تهلك ! إنك تنقذ !
وإن يدك لرسول سماوي يحمل شعلة إلهية !

* * *

عند ما تنطبق عيني التعبة على ضوء النهار
ستأتي ، وتغرق جفونها بنور أشد نقاوة منه !
ويفتح أمامي الأمل ، وأنا أحلم في القبر على مقربة منك
أبوابَ عالم أبهى من هذا العالم !

* * *

تعال إذاً وأنقذني من قيودي الجسدية !
تعال وافتح لي سجني ! تعال وأعرني جناحيك !
ما يلهيك ؟ ! إظهر ! ولأقذف بنفسي أخيراً
نحو هذا الكائن المجهول : مبدأي وغايتي !

* * *

من فصلني عنه ؟ ! من أنا ؟ ! وما يجب أن أكون ؟ !
إني أقضي ولا أفهم معنى الحياة !
أيتها الروح ! أيها الضيف المجهول ! يا من أسائلك عبثاً !
في أية سماء كنت تقطنين قبل أن تكوني في ؟ ؟ !
أية قوة قذفت بك إلى هذه الكرة الأرضية ؟ !
وأية يد ألقت بك في سجنك الصلصالي ؟ !
أي روابط خفية ، وأي عقد مدهشة
جعلتك تقيمين في الجسد ، وجعلت الجسد مالكا لك !
أي يوم تنفصلين فيه عن المادة ؟
وإلى أي صرح جديد تغادرين الأرض ؟
أتنسين عندها كل شيء ؟ !
أتعودين بعد القبر إلى الحياة ؟ !
أتبدأين حياة ثانية ؟
أم ستعملين ، وقد تجردت إلى الأبد من قيودك الفانية
على التلذذ بحقوقك الخالدة
في جوار الله مبدأك ومعادك !

* * *

أى نعم . ذاك ما أتمناه يانصيفة حياتى !
ذاك ما جعل نفسى مطمئنة
وقادرة على النظر ، دون ماذعر إلى قسمات وجهك الوسيمة
تذوى عليها ألوان ربيعك الساطعة !
ذاك ما جعلك ترينى أبتسم
وأنا أموت شاباً فريسة تلك الطعنة التى أصبت بها !
ذاك ما جعل دموع الفرح تلمع فى عينى
عند رؤيتك الأخيرة ، فى وداعنا الأخير !

* * *

« أمل باطل ! » هكذا سيقول أتباع أبيقور !
إنهم سيقولون : « يا فاقد الشعور ، يا من يخدعك غرورك الكثير !
أنظر حواليك : فكل شىء يبدأ ويتلاشى !
كل شىء يسير إلى نهاية ! وكل شىء يولد ليموت !
إنك ترى الزهرة تذوى فى تلك الحقول الصفراء !
والأرزة الشامخة تسقط فى الغابة تحت أعباء السنين لتفنى خلال الأعشاب !
إنك ترى البحار تجف في أحواضها الناضبة !
والسموات نفسها قد أخذت بالاضمحلال !
حتى الشمس ، ذلك الكوكب الذي كتم الزمن مولده
تسير مثلنا نحو الفناء !
ولسوف يبحث البشر عنها يوماً فلا يجدونها ، فيتيهون فى الفضاء الفارغ !
إنك ترى الدهور حواليك ، فى الطبيعة كلها !تترا كم غباراً على غبار !
وإنك لترى الزمن يخطو خطوة واحدة فيطويك مع كبريائك !
وينقلب كفناً لجميع ما أنتج !
والانسان ! والانسان وحده ! يا للجنون العظيم !
يظن أن سيعود ثانية إلى الحياة فى أعماق لحده !
ويحلم بالخلود ، بعد أن حطمه الزمن
وحملته العاصفة إلى العدم !

* * *

ألا فليحبكم سواى يا فلاسفة الدنيا !
ودعونى ووهمى ! فالأمل يجب علىّ وهو حبيب إلىّ !
إن عقلنا ليتعثر ويختلط عليه الأمر
نعم إن العقل ليسكت ، ولكن القلب ليجيب !

* * *

أما أنا ، فحينما أرى الكواكب
وقد تاهت عن طريقها السوي فى السهول السماوية
يصطدم بعضها ببعض فى حقول الأثير
وتنقلب دون ما غاية في السموات المذعورة ؛
حينما أسمع الأرض تئز وتتحطم ،
حينما أرى كرتها الشاردة المنعزلة
تسبح بعيدة عن الشموس ، باكية إنسانها الهالك !
لتضل فى حقول الليل الأبدى !
حينما أكون آخر شاهد لتلك المناظر الرهيبة ؛
حينما أظل محاطاً بالموت والظلمة
وبالرغم من وحدتى وجزعى
سآمل فيك أيها الكائن الحق اللطيف
وسأنتظرك أيضاً ، وأنا فى العوالم البالية
مؤمناً بعودة الفجر الأبدى !

* * *

ما أكثر ما غمرتنى وإياك تلك الظلمة ونحن بعيدان عن العالم ، يحدونا الأمل
تارة على قمم الصخور الهرمة ! وأخرى على ضفاف البحيرة الكئيبة القاحلة !
أثناء مقامنا السعيد ... حيث بدأ حبنا الخالد
لدي النظرة الأولى كما تذكرين !

* * *

لقد كانت الظلال ، وهى تنحدر من وراء الجبال
بقطعها الطويلة ، تحجبها عن أبصارنا !
فلا تلبث كواكب الليل الغريبة

بعد برهة من الزمن
إن تزحف دون ما جلبة أو أبهة
وترد على أبصارنا ما حجب عنها
وتسبغ على الأرض ثوباً من الأنوار الضئيلة
كما يسبغ المصباح نوره المقدس على المعابد المقدسة التي أضاءها النهار بنوره
فينير منهـا الهياكل بعد ما تأخذ أشعة المسـاء تدريجاً بالاصفرار !

* * *

هنا كنت تفتشين ، وكنت تنتقلين ببصرى
من السماء إلى الأرض ، ومن الأرض نحو السماء
وكنت تقولين : « إيه يا إلـهى الخفي »
إن الطبيعة هيكل لك
إن العقل ليراك فى كل بقعة تتأملها العين منها
إن هذا العالم مرآة لـكمالك الذي يحاول العقل إدراكه !
وصورة له وانعكاس عنه !
إن النهار نظرتك ، والجمال بسمتك !
إن القلب ليعبدك في كل ناحية !
وإن النفس لتحيا بك !
أيها الخالد الأبدى ! أيها القدير اللطيف !
إن جميع تلك النعوت ليست كافية لتصوير عظمتك !
إن العقل ليعنو أمام جوهرك العظيم !
فيمجد عظمتك حتى لدى سكوته !

* * *

إلا أنه وهو ذاك العقل المنهزم يا إلـهى
حينما يشعر أن الحب سر وجوده
يندفع بذاك القانون الجليل نحوك
متشوقاً إلى حبك ومتحرقاً إلى معرفتك

* * *

لقد كنت تقولين ، وقد وحد قلبانا زفراتهما المتصاعدة نحو هذا الـكائن المجهول الذى نمت عليه آمالنا !
كنت تقولين ونحن جاثون أمامه وقد أجبناه فى خلقه
وحمل إليه الفجر ـ المشاء تمجيدنا إياه !
كنت تقولين وقد أخذت عيناناً المتنبئتان
تارة تتأملان الأرض : منفانا نحن !
وأخرى تتأملان السماء مقامه هو ! :
« آه لو أن الله يستجيب دعواتنا فى هذه الساعة التى تحاول بها نفسنا القرارة خلاصها وتحطيم قيدها وإسارها !
فيرسل علينا من علياء سمائه طعنة تحررنا كلينا !
إذا لرجمت روحانا نحو مبتعهما دفعة واحدة !
ولصعدتا على جناح الحب فى ثنايا اللانهاية كأنهما خيط من نور ! حتى تصلا ، وقد اجتازتا فى سيرها العوالم معاً
أمام الله ، وقد ذهلتا عن ذاتيهما
فتعيشان إلى الأبد ممتزجتين فيه !

* * *

أترياننا مخدوعين بهذه الآمال ؟ !
أصائران نحن إلى العدم ؟ !
أمقدر على أرواحنا الفناء ؟ !
أتقاسم الروح والجسد مصيره بعد خلاصها منه ! فتفنى معه فى ظلمات القبر
وتتحول إلى غبار ؟ ! أو تتلاشى كما يتلاشى الصوت فى الفضاء ؟ !
أو لا يبقى ، بعد الفراق الفادح واللوعة الضائعة
جزؤ يحبك من ذاك الذى كان يحبك ؟ !
آه يا إلـهى ! لا تسائلى سوى نفسـك عن ذلك السر العظيم !
وانظرى إلى من أحبك وهو يموت
ثم أجيبى !

احمد هيثالى
عضو بعثة أساتذة جمعية المقاصد فى مصر